قصة وقصيرة مترجمة

وخـــز..

للأديب الباكستاني أحمد نديم قاسمي
ترجمها عن الأردية د. سمير عبد الحميد إبراهيم

هذا الكاتب وهذه القصة

أحمد نديم قاسمي أديب باكستاني قضى طفولته وصباه في ريف منطقة البنجاب، فشاهد عن قرب حياة أهل الريف بجميع طبقاتهم، ومن هنا وجدت شخصيات الريف طريقاً إلى قصصه التي صاغها بأسلوب معبر، يمتاز بالسهولة والبساطة.

ويمكن القول باختصار شديد: إن أحمد نديم قاسمي أوجد مكاناً رحباً للريف في القصة الأردية مما يذكرنا بمكانة الريف في كتابات الأديب العربي محمد عبد الحليم عبد الله، مع الفارق في المعالجة لاختلاف البيئة والظروف. وتشهد على ذلك مجموعته القصصية الأردية، التي نشرها بعنوان «الحجر الأزرق» عام ١٩٨٠م ومجموعته الأخرى بعنوان «زهرة القطن» أو «نوار القطن» إن صح التعبير، وبسبب هذه القصص الرائعة، نال أحمد نديم قاسمي شهرة في الأوساط الأدبية، ذلك لأن أسلوبه في معالجة قضاياه وطريقته في عرض شخوصه مختلف عن أدباء الأردية الآخرين، ممن عالجوا أيضاً موضوعات الريف في قصصهم، من أمثال الأديب غلام الثقلين نقوي، والأديبة جميلة هاشمي، والأديب صادق حسين وغيرهم.

وقصته «وخز» يعالج فيها هوس جمع المال في أوساط «المستشيخين» الذين اتخذوا من المزارات والأضرحة وسيلة لنهب الناس البسطاء واستغلالهم، يفسدون عليهم عقيدتهم، ويوقعونهم في حبائل الشرك، بعد أن يكونوا قد أبعدوهم عن صفاء عقيدة التوحيد ونقائها، التي هي أساس الدين الحنيف.

وتعد هذه القصة التي ننقلها عن الأردية إلى العربية - بأمانة ودقة ومراعاة تامة للنص الأردي - من الروائع الأدبية للأديب أحمد نديم قاسمي.

(المترجم)

لم يفهم أحد كيف وفي هذا العمر ظهر هذا الحب الإلهي في قلب شمشاد علي، ذلك الشاب الوجيه، الذي كانت أنظار الناس تتعلق به حيثما مضى ... كانت شعرات ذهبية متفرقة، تلمع وتبرق في لحيته، التي نبتت حديثاً، وفي شاربه أيضاً، أما إنسان عينيه فكان يبدو أحياناً للناظرين بلون اللوز الداكن، وأحياناً يبدو بلون يميل إلى الزرقة، كان الناس قد اعتادوا على مشاهدته، حين كان يخرج من بيته ذاهباً إلى المسجد، وحين كان يعود إلى بيته قادماً من المسجد، ولم يحدث أن وقع نظرهم عليه في أي مكان آخر. كان شمشاد علي يجلس في المسجد لفترات طويلة، ويستغرق في تلاوة القرآن الكريم. وفي البيت كان يجلس مفترشاً سجادة الصلاة، يردد الأدعية والأذكار لساعات طويلة، فساور الخوف إخوته الكبار، ظناً منهم بأن يكون أخوهم الأصغر، شمشاد علي قد «انجذب» وأخذه الوجد، وسيظل هكذا «مجذوباً»، فزوجوه ... وصار أباً، إلا أن حبه لأهله كان من نوع عجيب، فكان بعد أن يتم قراءة الأدعية والأذكار -ينهض وينفخ في وجه طفله القابع في حضن أمه حيناً،أو يقوم بتمرير أنفاسه بامتداد جسم طفله النائم في مهده حيناً آخر، وكأنه ينقل ثواب جميع الأدعية والأذكار التي قرأها إلى وليده، ومن ثم يأخذ طريقه إلى المسجد. وكم من مرة أجلسوه وأفهموه أن تلاوة الأدعية والأذكار لا بأس بها، إلا أن الإنسان الحي عليه واجبات أخرى كثيرة، فهو رجل لزوجة، كما أنه والد لابن، وعليه واجبات لا بد أن يقوم بها، ولكنه كان يجلس وقد ازدانت شفتاه بابتسامة لم تكتمل، وحين يبدأ الجميع في التفرق ينهض هو أيضاً ويتجه إلى المسجد...

في فصل الشتاء كان يعاند، فيتوضأ بالماء البارد، ظناً منه أن هذا من تمام العبادة أيضاً، ومن ثم كان يضع جانباً إبريق الماء الساخن، الذي كانت زوجه تحمله إليه، حتى ظهرت الشقوق في كعبيه، وتسلخ جلد أصابع يديه، وتحول إلى قشور، ورغم هذا ظلت الابتسامة التي لم تكتمل بعد تزين شفتيه، واستمرت حياته على هذا المنوال.

كان شمشاد علي ينتمي إلى أسرة، اشتهر أفرادها بين الناس بالانقطاع إلى عبادة الله، أسرة ورث أفرادها المشيخة أباً عن جد، إلا أن مزار شيوخ هذه الأسرة، كان بعيداً عن القرية، في موضع يقال له «وندي شيخان»، وكان الأخ الأكبر، ويدعى أمجد علي هو «الخليفة» بين أفراد هذه الأسرة ، وكان كلما رجع من «وندي شيخان» إلى قريته ظل قلقاً، وهو يشاهد أخاه في حالة الطرب هذه، منتشياً بذكر الله، ويظل يفكر ويفكر، وذات يوم، وبعد التشاور مع إخوته قرر ضرورة أخذ شمشاد علي إلى «وندي شيخان»، إلى «المزار»، فإذا لم يتراجع بأي شكل من الأشكال عن

هذا الاستغراق المستمر في تلاوة أدعيته وأذكاره وقراءة أوراده، وجب إبقاؤه في المزار، حيث خانقاه الآباء والأجداد، فمن الممكن أن يفيق قليلاً مما هو فيه، ويكون بشكل أو بآخر ذا فائدة لأخيه الأكبر أمجد علي، وحين أخبر شمشاد علي بأن أخاه الأكبر سيأخذه إلى المزار قال: «حسناً ... ليأخذني إلى هناك، فالله هو الله في كل مكان، والقرآن هو القرآن في كل مكان، لا يفرق الأمر معي شيئاً».

وفي «وندي شيخان» أجلس شمشاد علي في جانب من المزار، على مسند المشيخة، وظل جالساً منشغلاً بما هو فيه كعادته كل يوم، وحين علم المريدون بأنه هو الشيخ الصغير، تدفقوا عليه جماعات جماعات، نظراً لاعتقادهم في ولايته، وراحوا يقبلون يديه حتى ابتلتا، وراحو يتمسحون بركبتيه حتى اتسخ سرواله من أوله إلى آخره، ومع هذا استمر شمشاد علي في تلاوة أوراده وأذكاره وترديد أدعيته، دون أن يعير هؤلاء المريدين المتمسحين به أدنى اهتمام، وربما قال لهم مرة أو مرتين: «هاكم أخي، إنه يجلس هناك: ولما لم يهتم المريدون بما يقول، تراجع وانكمش على نفسه، واستمر فيما هو عليه، وفي تلك الأثناء شاهد أحد المريدين يرفع طرف «المسند» الذي يجلس عليه، ثم يعيده ثانية إلى وضعه الأول، فظن شمشاد علي أن هذه الحركة مظهر من مظاهر التكريم والتبجيل، لكن حين جاء أخوه ليأخذه بعد حلول الظلام، قام خادمه مبارك خان، برفع جميع أطراف المسند، وجمع «رزماً» من الأوراق المالية، في تلك اللحظة، ابتسم شمشاد علي -ولأول مرة- ابتسامة عريضة واضحة وقال:

إنها جريمة أن تسلب إرادة الإنسان تحت وهم خادع

«ظننت أن الناس يتلمسون البركة من المسند أيضاً، كما يتلمسونها من يدي وركبتي، الآن فقط عرفت أنهم كانوا يقدمون لي النذور».

فنبهه أخوه قائلاً: «شمشاد! هذه النذور لم تقدم لك، هذا مال المزار، هذا ملك «المقام الشريف» افهم، هذا المال وصل المزار عن طريقك وبواسطتك، وسوف تنال عن ذلك ثواباً عظيماً».

فقال شمشاد علي: «حتى لو حصلت على هذا المال كله فماذا أفعل به؟! إن ربي يرزقني بما احتاج ... غداً سوف أقول للمريدين: لا تلتمسوا البركة من مسندي، وإذا كان عليكم أن تقدموا النذور فلتذهبوا بها إلى أخي...».

فقال أخوه من فوره: «لا .. لا .. لا تفعل هذا أبداً .. أبداً .. فاهم .. إن النذور التي ترد عن طريقي شيء، والنذور التي ترد عن طريقك شيء آخر .. لماذا تقول هذا فترتكب جريمة خفض إيراد المزار؟!».

قال شمشاد علي: «حسناً .. حسناً .. لكن إيراد المزار كله يؤول إليك، أليس كذلك؟» .

فرد الأخ، وقد ضاق ذرعاً بكلام شمشاد: «افعل ما قلته لك، ولا تدخل في جدال حول هذه النذور والأموال حتى لا يخرب إيمانك».

فقال شمشاد علي متظاهراً بالخوف: «حاضر .. حاضر».

وحين رجع المريدون الذين قدموا إلى المزار إلى قراهم، ذكروا لذويهم وأهليهم أن الأخ الأصغر للشيخ الكبير قد شرّف المزار بحضوره، وأن على وجهه نوراً عظيماً، فكأنه ملاك يجلس على مسند المشيخة، وهكذا اصطف الناس طوابير طويلة أمام المزار، أما أمجد علي فكان بعد تقديم النذور يأتي من فوره إلى شمشاد علي، فينظر إليه ويحملق فيه، وكأن بصره قد عشي، كان المريدون لا يضعون الأوراق المالية فقط تحت أطراف المسند، بل كان الحريصون منهم يعمدون من باب الاحتياط إلى حشو جيب شمشاد علي بالأوراق المالية ... وفي المساء يتولى مبارك خان أمام أمجد علي جمع النذور من تحت المسند، وإفراغ جيب شمشاد من كل ما به، ثم يتوجه الاثنان معاً إلى حجرة جانبية، حيث ينهمكان في عد النقود وإحصائها، ويغرقان في الضحك، فبركة شمشاد علي تضاعف إيراد المزار، وتزايدت كمية النذور المقدمة للمقام الشريف.

بعد موسم حصاد القمح مباشرة، ينعقد «المولد» السنوي للمزار، فيتجه المريدون من طول المنطقة وعرضها إلى المزار، محملين بأموال النذور، فيشحن كل من أمجد علي وشمشاد علي بالأوراق المالية، وكأنهما خزانتان مكتظتان، وبمناسبة «المولد»، وبسبب تدفق المريدين وتزاحمهم، تمزق جيب شمشاد علي من كثرة ما وضع فيه من نقود، نظراً لأنه لم يكن فيه متسع للمزيد من أموال النذور، فقام أحد المريدين، وأراد أن يضع النذور في يد شمشاد علي، فسحب شمشاد علي يده وانتفض كأن صاعقة أصابته، ثم نظر إلى المريد باستياء جعله يرتعد من الخوف، فنهض شمشاد علي ومسح بيديه على رأسه، ثم وضع يده على صدره قائلاً :

«اعذرني يا أخي فقد ظننت أنك تعطيني هذا المال، وأنا لا حاجة لي به، إن الله يعطيني ما أحتاج، هذا المال هو مال المزار، هو ملك هذا المقام الشريف، لهذا لا تضعه في يدي، ولا تضعه في يد أي إنسان آخر، لأن صاحب اليد التي تأخذ هذا المال يصبح نجساً.

وهكذا أثبتت هذه الواقعة صدق «ولاية» شمشاد علي وعظمته، فراح الناس يتزاحمون عليه، حتى إن القلق ساور أمجد علي أحياناً، فقد ينكشف الملعوب، ويخسر كل شيء، ولكنه كان حين يرى مبارك خان، وقد جمع «رزم» الأوراق المالية، من تحت المسند الذي يجلس عليه شمشاد علي، ومن جيب شمشاد علي الواسع، الذي خيط بالقميص بدلاً من ذلك الجيب الذي تمزق قبلاً - كان يلتزم الصمت ولا ينطق بكلمة .

وذات ليلة حين غادر مبارك خان المزار، بعد أن جمع النذور، رأى شمشاد ورقة بمائة روبية، وقد برز منها طرفها من تحت المسند الذي يجلس عليه، فتناول المنديل الموضوع على كتفه ولفه على يده ورفع بيده ورقة المائة روبية، واتجه إلى حيث يجلس أخوه ففتح الباب، فوجد أمام أخيه أمجد علي أكواماً مكدسة من الأوراق المالية، فئة مائة الروبية، وفئة الخمسين روبية، وفئة عشر الروبيات، وخمس الروبيات، والروبية الواحدة، ومبارك خان يقوم بترتيبها وعدها، واستاء أمجد علي من دخول شمشاد علي المفاجيء فقال: «شمشاد .. حجرتك هناك في الناحية الأخرى، ماذا جاء بك هنا؟!».

قصة قصيرة مترجمة

أما مبارك خان فظل جالساً حيث كان، لم يغير من وجهته، فقال شمشاد علي: «مبارك خان نسي هذه الورقة، هناك تحت المسند، ففكرت أن آتي لأعطيكما إياها».

فهدأت ثائرة أمجد علي وقال: «ضعها هنا».

فأسكن شمشاد علي مائة الروبية يد مبارك خان، وجلس بجوار أكوام الأوراق المالية، وراح يدقق النظر فيها، ثم قال: «هذا المبلغ كله ملك للمزار! أليس كذلك يا أخي العزيز؟».

«نعم .. نعم» أجاب أمجد علي.

كان هذا بمثابة هجوم آخر مفاجيء على أمجد علي، وراح شمشاد علي يتساءل كطفل يستفسر عن شيء لا يعرفه:

«لكن في أي شيء تنفقون هذه الأموال يا أخي؟».

فقال أمجد علي: «هذا المطبخ الذي يعمل ليل نهار، وما نقدمه من أجل تكريم الضيوف الأعزاء القادمين من أماكن بعيدة، وتلك الرواتب التي قررناها للمساكين واليتامى والأرامل، والمولد الذي يعقد كل سنة، والذي ننفق عليه تقريباً مائة ألف روبية، و ...».

فقاطعه شمشاد علي وهو ينهض من مكانه: «أخي أنا لا أعرف الحساب، لكن أقول بالتقريب، يعني أن ما يجمع فقط في وقت المولد من نذور، هو بالتأكيد يعني أكثر من مائتين وخمسين ألف روبية».

فقال له أمجد علي وهو يحملق في وجهه: «ألم أقل لك ألا تتدخل في مثل هذا الجدال حول النذور والأموال لئلا يخرب إيمانك؟!».

فانسل شمشاد علي من الغرفة، كطفل علت وجهه مسحة من ندم، بعد أن انكشف ما وقع فيه من خطأ.

وذات يوم من أيام الشتاء دهش أمجد علي وتحير، حين رأى بعض المريدين يتهامسون فيما بينهم، أمام المسند الذي خلا لأول مرة من الشيخ، وراح أحدهم يتساءل:

«يبدو أن شيخنا الفاضل بعافية».

فرد عليه آخر: «لقد نهض الآن وذهب إلى حجرته، لكنه كان يتعثر وكأن الأرض تميد به، وراح يتلوى منحنياً على ركبتيه..».

وصل أمجد علي إلى حجرة أخيه فوجده يتلوى من شدة الألم، ويكح ويلهث بشدة، وقد تقطعت أنفاسه، فراح أمجد علي يتأمل حالة أخيه، وعرف أنه قد ابتلي بداء «ذات الجنب»، فأخذ بعض الأدوية من أحد الحكماء، وقرر في الوقت نفسه أن يعيد شمشاد علي فوراً إلى قريته مسقط رأسه، إنه الالتهاب الرئوي، الذي يحمل رسالة الموت، لهذا أراد أن يبقي شمشاد علي في لحظاته الأخيرة مع زوجه وابنه، حتى لا يتهم بأنه كان سبباً في موت أخيه غريباً عن أهله.

وحمل شمشاد علي ووضع على السرير المفتول من حبال قائمة على أربع أرجل خشبية داخل بيته، وأرقدوه على جنبه الأيمن، فانتفض من فوره قائماً وقال: «وخز .. وخز شديد يؤلمني .. وخز آه وخز».

قال أمجد علي: «في الالتهاب الرئوي يحدث وخز بل ألم فظيع .. يرحمنا الله».

وفي صباح اليوم التالي حين قدم أمجد علي ليسأل عن حال أخيه. قال له شمشاد علي إنه حين أراد أن يرقد على جنبه الأيمن شعر في داخل تجويف الحوض في جسمه كأن وخز سكين حاد يمزق داخله. وجاء الحكيم ففحص بدقة الجنب الأيمن من جسم شمشاد فلم يجد أي بثور أو دمامل أو تورمات ولم يجد حتى أي علامة تدل على ذلك، فطلب الحكيم من شمشاد علي أن يرقد أمامه على جنبه الأيمن فمال شمشاد على جنبه الأيمن إلا أنه صرخ قائلاً:

«ليس هناك أي تغيير في حدة الألم الشديد، الناتج عن هذا الوخز الذي يمزق داخلي».

نظر الحكيم ناحية أمجد علي وكأنه يقول له إن المرض الذي أصيب به شمشاد علي قد عرف سببه، ثم انتحى به جانباً وهمس في أذنه قائلاً:

«لا يمكنني سوى القول بأن هذا هو وخز الموت».

قال أمجد علي: «لكن ... حضرة الحكيم لماذا لا يشعر بهذا الوخز وهو على جنبه الأيسر؟!».

وفجأة تحول الحكيم إلى صوفي فقال: «إن الميت يوضع في القبر على جنبه الأيمن، حتى يكون رأسه في اتجاه القبلة .. والشيخ الصغير يشعر بالوخز حين يكون على جنبه الأيمن، لأنه غير مستعد ذهنياً للموت ... وإلا فما عساه يكون السبب!؟

وفي اليوم التالي حين رأى واحد من كبار العائلة المعمرين، أن آخر لحظات شمشاد علي قد قربت، وأن روحه سوف تنتقل إلى بارئها بين لحظة وأخرى، قرر أن يبدأ الحضور في ترتيل سورة «يس» وأن يديروا شمشاد علي إلى ناحية القبلة على جنبه الأيمن. وحين أداروا جسم شمشاد عَلِي عَلى جنبه الأيمن إذا به ينهض مضطرباً منزعجاً ويقول:

«وخز ... وخز ... وخز».

فوضع فقيه القرية يده تحت الجانب الأيمن من جسمه، وراح يحركها هنا وهناك، وفجأة أشار عليهم بأن يجعلوه يستلقي على ظهره، ثم راح يخرج من جيب شمشاد علي أعداداً كبيرة من الأوراق المالية، التي أصبحت طياتها من كثرة تحركه يميناً وشمالاً مدورة كالحصيات ذات الأطراف المدببة ... وحينئذ فتح شمشاد علي فمه وقال بصوت خافت:

«آه لقد كانت هذه الروبيات ... نذور المزار ... تخزني».

آه .. لقد كانت هذه الروبيات نذور المزار تخزني .. ولن أعود إليها أبداً ..

هدم اللغة العربية الفصحى!

د. نعمان عبد الرزاق السامرائي

ما زال الاستشراق وتلاميذه يشنون حملة مسعورة على اللغة العربية الفصحى، ويتهمونها بالجمود والقصور وعدم التطور، ومن أوائل المستشرقين «وهلم سبيتا»، الألماني الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية في القرن التاسع عشر، وقد حاول وضع قواعد للعامية المصرية، مشيراً إلى أن الفصحى دخيلة، جاءت مع الفتح الإسلامي، وقام القاضي الإنجليزي (بول) وكان من قضاة المحكمة الأهلية بالقاهرة، فدعا إلى تبني اللهجة العامية، وكذلك «فيلوث» الأستاذ في كامبرج وكلكتا للغات الشرقية، قام هو و(بول) بوضع كتاب أسمياه «المقتضب في عربية مصر».

أما المستشرق «وليم ويلكوكس» الذي كان مهندساً للري في القاهرة فكان الأكثر حماساً لذلك. ومن نكد الدنيا أن هذا المستشرق الحاقد كان يتولى تحرير مجلة الأزهر عام ١٨٨٣م. أما ماسنيون وأمثاله فطالبوا بترك الحرف العربي واستبدال الحرف اللاتيني به، وجاء أمثال «سلامة موسى» ليكمل هذه المشاريع. ثم هدأت الهجمة وعادت اليوم مجدداً، لكن أي مستشرق أو تلميذ له -غير نجيب- لم نسمع لهم صوتاً ينتقد لغة أخرى، فهذه التركية بعد تبني الحرف اللاتيني صارت مضحكة، فكلمة «حامد وخامد وهامد» كلها تكتب (HAMID) ثم تقلب كل دال فتصير (تاء) حتى إن نور الدين تصبح -بقدرة قادر- نور التين.

واليابانية تحوي (٨٥٠) بين حرف وصورة، ولا أحد يتكلم.

وهذا تلميذ للمستشرقين، مستغرب حتى العظم يقول(١) (كما بقي الفلاح يستعمل المحراث العتيق، كذلك بقيت العربية محافظة على تعابير دينية، ونتف من الفقه، والنحو والأدب، منفصلة عن المعاجم العلمية الثرية... ولم تزل إلى الآن منفصلة عن المعجم العقلاني العلمي، الذي أحدثه الفلاسفة، لأن الفلسفة سرعان ما أصبحت ملعونة مطرودة...) إن جريمة العربية الفصحى أنها تحوي «تعابير دينية ونتفاً من الفقه» وبتركها نستريح من كل ذلك، ونهجر القرآن وكتب التراث فإذا سألنا -أستاذ السوربون- ماذا تحوي اللغة العبرية؟ لم نجد جواباً.

لقد «نبش» اليهود القبور ثم أخرجوا لغة عمرها ألوف السنين وراحوا يستعملونها، فلماذا يخاف أمثال «أركون» من الحديث عنها، وعن الجوائز التي تمنح لكل من يكتب عن خرافة من خرافات التوراة؟؟

إن اللغة تحيا وتتقدم أو تموت بفعل أهلها، فهم الذين يطورونها، وقد بقيت الجيوش العربية عشرات السنين تستعمل المصطلحات التركية ثم الغربية، ثم قامت جامعة الدول العربية فعربت المصطلحات كافة، دون استحالة أو عجز. فالعجز في الإنسان وليس في اللغة .

ولقد ترجمنا وعربنا معارف اليونان والفرس، وبعض علوم الهند ولم تعجز العربية عن استيعاب ذلك كله، حين وجدت الرغبة ووجد المترجم الجاد.

ويتساءل د. هشام شرابي- وهو عربي من عكا، أمريكي العقل والقلب واللسان، وعلماني حتى العظم -فيقول(٢) (هناك سؤال في غاية الأهمية: هل يمكن الدخول في «الحداثة» بواسطة لغة «غير حديثة»، لغة ما زالت في مرحلة ما قبل الحداثة، بمفاهيمها ومصطلحاتها وأطرها الفكرية؟).

والجواب في اللغة العبرية واليابانية!!!

يتحدث د. شرابي بعد هذا النقد عن صراع خفي بين حركة النقد «العلمانية»، وبين العربية الفصحى فيقول(٣) (... في هذا يكمن الصراع الخفي العنيف، الذي تخوضه حركة النقد العلمانية في الوطن العربي، صراع بين فكر يرمي إلى تجاوز اللغة التقليدية ونظامها، ولغة ترمي إلى لجم هذا الفكر وتقييده ضمن حدود الذوقية والأخلاقية والمصرفية،

وهذا الصراع ضد لغة «تأبى النقد» وتصر على مدلولاتها «الغامضة» فيتجسد في هذا التوتر الداخلي الذي يحيز الفكر العلماني الناقد، فكر «يفكر» بلغة أجنبية، ويكتب بلغة عربية فصحى.

شئنا أم أبينا، يستمد هذا الفكر العلماني الناقد مفاهيمه ومصطلحاته وأبعاده من التجربة الأوروبية «للحداثة» بمفهومها الشامل).

والسؤال: هل هناك لغة تأبى النقد وتصر على مدلولاتها الغامضة؟ الذي نعرفه أن أهل اللغة يفعلون ذلك، أما أن يكون هذا من نصيب العربية وحدها، فعلم ذلك عند أهل العلمانية والحداثة.

يتحدث «شرابي» -وهو أستاذ تاريخ الفكر الأوروبي- كيف قامت ونهضت التجربة الأوروبية «للحداثة» فيرى أنها اتخذت موقفين(٤):

١ - موقف تجاه الماضي ومحاولة الاسترجاع بالعودة للنموذجين اليوناني والروماني.

٢ - موقف تجاه المستقبل يقوم على العلوم وحتمية التقدم الإنساني «فلسفة التنوير».

فإذا انتقل إلينا تنكر لهذا قائلاً(٥) (يتجسد معنى «الحداثة» بالنسبة إلينا في اتجاهين مترابطين:

أ - الاتجاه العقلاني. ب - الاتجاه العلماني، أي عقلنة الحضارة وعلمنة المجتمع، فالحديث هو الطلائعي الجديد، بمعنى المغامرة نحو المستقبل، والانفلات من قيود الحاضر وماضيه).

الحداثة في الغرب -باعتراف الكاتب- سارت باتجاهين استذكار واسترجاع النموذجين اليوناني والروماني وتبني العلوم والتقدم، فلما انتقل إلى «حداثتنا» ترك ذلك أو تناساه ليتحدث عن اتجاهين عقلاني وعلماني، عقلنة الحضارة وعلمنة المجتمع!!!

لماذا هذا التهرب؟، لأن الأستاذ لا يريد لنا العودة إلى ماضينا، فهو هارب منه بل «قرفان» ولا يريد أن يعود إليه، كما فعل السادة.

لكن .. «الأستاذ» يعترف بأن تجار الحداثة والعلمانية، يظهرون دوماً كباحثين أجانب مما أدى إلى تبعية فكرية فيقول(٦) (... لكن كثيراً ما ينسى المثقفون العلمانيون

المصيبة أن تجّار الحداثة يظهرون كباحثين أجانب، مما يوّلد التبعية للغرب

تجربتهم الذاتية في كتاباتهم، فتظهر وكأنها أبحاث يقوم بها باحثون أجانب، تتصف بالتجريد الأكاديمي، ينطوي على هذا الموقف نتائج في غاية الأهمية، إذ أن مقاربة الذات من موقع الآخر «وبأسلوب موقع الباحث الأجنبي وأسلوبه» تؤدي بالضرورة إلى تبعية فكرية يصعب التغلب عليها).

وهذا هو المستنقع الذي سقط فيه العلمانيون الحداثيون. والأغرب من ذلك أن الكاتب يقر بكل ذلك إذ يقول(٧) (الأطروحة الرئيسة التي تقدمها الحركة النقدية العربية الجديدة هي أن المعرفة .. المنقولة أو المستوردة -والتي تنشىء الوعي المنقول أو المستورد- لا يمكن أن تحرر الفكر، أو أن تطلق قوى الإبداع في الفرد أو في المجتمع، بل هي تعمل في أعمق المستويات على تعزيز علاقات .. التبعية الثقافية والفكرية والاجتماعية).

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا «جلد الذات» واتهام اللغة؟!! ومن العجائب أيضاً أن الأستاذ شرابي يقرر بكل وضوح أن معارفنا وأساليب البحث عندنا في العلوم الاجتماعية كلها غريبة فيقول(٨) (لنذكر هنا أن أنظمة المعرفة وأساليب البحث العلمي في العلوم الإنسانية ، والاجتماعية، هي أنظمة وأساليب غربيَّة في أشكالها كافة، وإن معرفتنا لذاتنا ولتاريخنا ومجتمعنا في القرن العشرين هي معرفة غربيَّة في صميمها، فالعلوم الإنسانية والاجتماعية في العالم الثالث كلها في العصر الحديث مستمدة من الغرب، وهي إضافة لذلك تنتج وتعيد إنتاج المعرفة الغربية محليّاً، من هنا يمكننا تفهم أسباب الرفض المطلق للغرب عند الأصوليين وإصرارهم على العودة إلى الدين والتراث، لاستعادة الهوية الأصلية، من خلال معرفة تراثية مستقلة، عن كل الأطر والمفاهيم الأجنبية).

أليس غريباً أن يدرك الشرابي قضية بهذا الموضوع، ثم يعود لينساها أو يتناساها، ثم يدعو إلى عقلنة الحضارة وعلمنة المجتمع، وينتهي كل شيء!!! الهروب من الماضي والحاضر معاً؛ ويقرر أموراً بالنسبة لأوروبا ثم يتجاهلها،

متى نعود إلى تراثنا لنستعيد هُوّيتنا في استقلالية عن غيرنا؟

وبالنسبة للحداثة وما تجره من تغريب ثم يتناسى ذلك كله فما السبب؟؟

وما دمنا في التغريب فهذه «شهادة» صريحة للمؤرخ البريطاني «توينبي» أعجبتني صراحته فهو يقول(٩) (... ها هم الأتراك يحاولون إقامة صورة .. «طبق الأصل» لدولة غربيَّة، وشعب غربي، وعندما ندرك هدفهم نتساءل بحيرة: هل يبرر هذا الهدف حقّاً الجهد الذي بذلوه في صراعهم لبلوغه؟؟ إننا لم نكن نحب التركي التقليدي «المسلم المتحمس» ... لقد استطعنا أخيراً أن نحطم سلامه النفسي، لقد حرضناه على القيام بهذه ... «الثورة المقلدة» التي استهلكها الآن أمام أعيننا، والآن وبعد أن تغير التركي بتحريضنا ورقابتنا، وبعد أن أصبح يفتش عن كل وسيلة لجعل نفسه مماثلاً لنا وللشعوب الغربية، الآن نشعر بالضيق والحرج، بل نميل إلى الحنق والسخط، وبإمكان التركي أن يجيبنا بأنه مهما فعل فهو «مخطىء» في نظرنا، وهو قادر على ترديد مقطع من كتابنا المقدس «نفخنا معكم في القرب فلم ترقصوا، وحزنا معكم فلم ترضوا...».

ما الذي سيكسبه التراث الحضاري في حالة عدم ذهاب جهود الأتراك سدى؟ وفي حالة نجاحهم -فرضاً- النجاح المرجو؟!!

إن هذه النقطة تكشف في حركة «المقلدين» عن ضعفين فيها:

١ - إن الحركة المقلدة متبعة وليست مبدعة وفي حالة نجاحها -جدلاً- فلن تزيد إلا في كمية المصنوعات التي تنتجها الآلة، بدل أن تطلق شيئاً من الطاقة المبدعة في النفس البشرية.

٢ - في حالة النجاح الباهت المفترض، وهو أقصى ما يمكن للمقلدين تحقيقه والوصول إليه، سيكون هناك خلاص، نعم مجرد خلاص، لأقلية ضئيلة، في أي مجتمع تبنّى طريق التقليد...).

نعم هذا هو «الحيّز» المحدود الذي يمكن أن يشغله «المقلد»، ولو حاول أن يتعدى ذلك فهناك «كوابح» وحواجز تمنع. نعم يا توينبي ما زلنا ننفخ في القرب حتى هلكنا في النفخ، وما زلنا في مكاننا نراوح.

هذه أوروبا تقبل الدول الأوروبية كافة في سوقها، وتمنع تركيا من ذلك فلماذا؟؟

وقبل الختام أريد أن يقرأ د. شرابي الذي تأمرك فنسي قضيته وأهله، وراح يتلهى بالحداثة والعلمانية، أريد أن يقرأ ما قاله «مارشال بيرمان» عن الحداثة، وانقل النص عن كتاب د. شرابي نفسه «البنية البطركية»(١٠) (الحداثة قضية أوروبية صرفة، فهي ظاهرة وجدت هناك، وتفاعلت تاريخياً، فهي غربية المنشأ والهدف والمحتوى، وعلامة فارقة للغرب عن غيره) فما رأى د. شرابي بهذا؟؟

وهذا «هشام جعيط» -وهو كاتب يساري مغربي- يتحدث عن الحداثة والإسلام فيقول (... من جهة أخرى لو تصفحنا ما في «الحداثة» من شرور الفردية والعزلة والاستغلال والمادية الاقتصادية، والبؤس النفسي لصار من الممكن التفكير بأن الإسلام كقوة روحية قادر على أن يبث رسالة تجديدية لإنسان القرن الواحد والعشرين)أهـ.

هذه هي «الحداثة» بوجهها الكالح كما يرسمها كاتب يساري.

فلماذا تهاجم العربية الفصحى دون سواها، ومن المستشرقين وتلاميذهم دون سواهم؟؟ ومتى كان المستشرق حريصاً على خيرنا وتقدمنا، وهو المستشار في كل أذى يدبّر لنا، وكل حرب تعلن ضدنا اللهم إلا قلة نادرة تتصف بالموضوعية والاعتدال.

هوامش

(١) الفكر العربي/ د. محمد أركون ص(٨) ترجمة عادل العوا ١٩٨٠م.

(٢) النقد الحضاري ص ٨٥ مركز دراسات الوحدة العربية.

(٣) النقد الحضاري ص ٨٦ مركز دراسات الوحدة العربية.

(٤، ٥) المرجع السابق ص٨٦ .

(٦) المرجع السابق ص ٩٢ .

(٧) المرجع السابق ص ٥١ .

(٨) المرجع السابق ص٣٦ .

(٩) الإسلام والغرب والمستقبل ترجمة د. نبيل صبحي ص (٥٠) دار العربية .

(١٠) البنية البطركية ص ٣٣ دار الطليعة ١٩٨٧ .

د. عبد العزيز الثنيّان

د. عبد العزيز الثنيّان:

الأدب الإسلامي له أهميته في توجيه المسلمين نحو التآزر والتآلف

أجرى الحوار: المحرر الأدبي

نحن أحوج إلى الإبداع الإسلامي المتميز الذي يوحد صفوف أمتنا ويبصّرنا بقضايانا الرئيسة ويضع لنا حلولاً ومقترحات لمواجهة ما يعترينا من عقبات ومعوقات وتيارات هدامة..

هكذا بدأ الدكتور عبد العزيز الثنيّان؛ أحد كبار المثقفين في عالمنا العربي ووكيل وزارة المعارف السعودية؛ في حواره لمجلة «الأدب الإسلامي» وضرب سعادته أمثلة متعددة على أهمية الأدب، وضرورة مواجهة الدعاوى الخبيثة الوافدة إلينا من خارج بلادنا ..

وكان هذا الحوار:

* كانت رسالتكم لنيل درجة الدكتوراه عن شعر الوحدة الإسلامية ... ما هو في نظركم الدور الذي يمكن أن يقدمه الأدب في مجال الوحدة الإسلامية وتوجيه المسلمين للسير في طريقها؟.

الأدب الحقيقي يجمع الشمل ويلم الشتات ويؤجج العواطف

- يقول الدكتور الثنيان: دور الأدب الإسلامي في خدمة الوحدة الإسلامية مهم وعظيم، فالأدب يخاطب العواطف ويناجي المشاعر ويذكي الحماسة في النفوس، ويحرك الوجدان فأي مسلم لا يهتز لقول الشاعر محمود غنيم:

إنّي لأعتبر الإسلام جامعةً ... للشرق لا محضَ دينٍ سنّه الله
أرواحنا تتلاقى فيه خافقةً ... كالنحل إذ يتلاقى في خلاياه
دستوره الوحيُ والمختار عاهله ... والمسلمون -وإن شتوا- رعاياه

والأدب يجمع الشمل ويلم الشتات ويؤجج العواطف فمشاعر المسلمين تجاه قبلتهم الأولى واحدة فكم من نص أدبي دعا إلى إنقادها فاهتزت له العواطف الإسلامية وتحركت له المشاعر الإيمانية.

والأدب يبعث الصحوة الإسلامية حين يستنهض الهمم الراقدة ويوقظ العزائم الوانية، فأندلسية شوقي التي قالها في الحرب البلقانية سنة ١٣٣١هـ-١٩١٢م تتكرر مأساتها اليوم في البوسنة والهرسك وكأن التاريخ يعيد نفسه، وهي تذكي حماسة المسلم حيث كان وكيفما كان حيث يقول:

يا أخت أندلس عليك سلام.. هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها.. طويت وعم العالمين ظلام

وقد عرض فيها صوراً من الجرائم البشعة التي ارتكبتها الجيوش الغازية كتلك التي يرتكبها الصرب اليوم على مرأى ومسمع من جمعيات حقوق الإنسان في دول أوروبة المتحضرة.

يقول رحمه الله:

كم مرضع في حجر نعمته غدا...وله على حد السيوف فطام!
وصبيّة هتكت خميلة طهرها... وتناثرت عن نوره الأكمام!
وأخي ثمانين استبيح وقاره... لم يغن عنه الضعف والأعوام!

ثم إن الأدب الإسلامي قادر على توجيه المسلمين اليوم نحو التآلف والتآزر في شتى مجالات الحياة لأن مصالحهم الحيوية من اقتصادية وثقافية تحتم عليهم أن يتزاوروا، وأن

يسيح بعضهم في بلاد بعض، فيعقدوا المؤتمرات التجارية والثقافية بحثاً عن سد الحاجة ودرء الكساد، وهنا يبرز دور الأدب وأهميته.

ولقد كتب الرحالة المسلمون الأقدمون كابن بطوطة وابن جبير وغيرهما عن طبيعة بلاد المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم فأحسنوا وأجادوا.

وحبذا لو أن للمسلمين سوقاً إسلامية مشتركة ليؤدي الأدب الإسلامي دوره في هذا المجال.

مجالات رحبة:

* قامت وزارة المعارف السعودية مشكورة بتقرير مادة «الأدب الإسلامي» في كليات المعلمين المتوسطة وذلك أسوة بتقرير هذه المادة في عدد من الجامعات السعودية وكليات البنات.

-ما هي في نظركم- مجالات الإفادة من الأدب الإسلامي في المراحل الثانوية والمتوسطة وبخاصة في كتب تاريخ الأدب والنصوص؟

- يجيب الأديب الدكتور الثنيان، قائلاً : إن مجالات الإفادة من الأدب الاسلامي ودراسته رحبة، منها تزويد الطلاب بالنصوص الأدبية المتميزة السامية التي تمجد الفضيلة، وتؤصل مكارم الأخلاق، وترعى الجوانب السلوكية المختلفة لدى أبنائنا اليوم وأساتذة الغد فهم في هذه المراحل من الدراسة والسن أحوج من غيرهم إلى ذلك لأنهم في مرحلة البناء والتكوين التي تتأثر بالقدوة الحسنة وتتأسى بالمثالية وهم بحاجة إلى التعريف بمدارس الأدب الإسلامية وأدبائها الذين يدعون إلى مراعاة الجوانب الإيمانية، ويترفعون في أدبهم عن سفاسف الأمور.

* كيف تنظرون إلى دور الأدب الإسلامي في تربية الأجيال وتنشئتها تنشئة إيمانية وخلقية؟

- الطلاب في هذه المراحل كما أسلفت يمرون بمراحل انتقالية خطيرة نصبت حولها شباك الإغراء فقد يتزعزعون أمام تلك المغريات المادية الأخاذة الجذابة، وهنا تبرز مهمة الأدب الإسلامي ودوره في تنشئة الأجيال تنشئة إسلامية، حين يساهم في بعض الرقابة الذاتية في نفوس أبنائنا الطلاب لتكون سداً منيعاً أمام مغريات العصر ومدارس الغزو الفكري التي تسعى جاهدة إلى طرد الحصانة الإسلامية لديهم.

* عداء مستمر:

* كيف ترسمون طريق التصدي للمذاهب والدعوات الأدبية التي غزت عالمنا الإسلامي مع تيار التغريب الجارف؟

هل يكون ذلك بالكتابة عن سلبيات هذه الدعوات ومخاطرها؟

أم بإهمالها وتجنبها وعدم الحديث عنها؟

أم بتشجيع النتاج الأدبي الملتزم بالقيم الإسلامية حتى يكون هو الإنتاج البديل والسائد في الساحة الأدبية؟

- إن الهجوم على الإسلام بزعزعة العقيدة وطردها أو تشويهها لدى الشباب المسلم هو هدف تلك المذاهب الهدامة التي تناصب الإسلام العداء، وإن التصدي لها لون من ألوان الجهاد وعلى كل أديب مسلم أن يساهم في ذلك سواء بالتحذير منها أو النقد وكشف مقاصدها الخبيثة ثم تقديم إنتاج أدبي إسلامي يعرض على الجيل المسلم عرضاً إبداعياً يستهوي القراء من الناشئة، ليكون بمثابة مصل وقائي ضد تلك المبادىء، وحتى لاتترك الساحة خالية لدعاة تلك المبادىء الضالة المضللة التي أغواها الشيطان وزين لها سوء أعمالها، فقدمت في عالم الكتابة عفناً مسموماً سمته أدباً.

عالمنا الإسلامي يمر بمرحلة تتطلب اليقظة

* أخيراً ... ما الآمال التي تعلقونها على قيام رابطة الأدب الإسلامي العالمية؟

- إن الآمال كبيرة، وتكفي عالميتها، وتواصل منسوبيها، وتبادلهم الرأي في كل ما يهم المسلمين، ويدفع الشر عنهم، ويعلي كلمتهم، ويشد أزرهم.